بسم الله الرحمن الرحيم

# من توكيد الضميرين

# فـــــى القرآن الكريم

دكتور

**بغدادى إبراهيم الصحابى**

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

## المقدمة

الحمد الله الذي أنزل علي عبده الكتاب ولم يجعل لـه عوجـا والصلاة والسلام علي من أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ورضـي الله عن أصحابه الكرام البررة الذين ملكوا ناصية البيان

**وبعد ،،**

فإن التوكيد في لغة العرب قد كثرت أدواته وتعـددت أنماطـه وتباينت طرائقه، والقران الكريم يخاطب العرب بما يألفون ويوصـل إليهم المراد بما يفضلون ، ويأتي من التعبيرات بما يتناسب مع أحوالهم وما يتناسب مع اختلاف نفوسهم واختلاف أزمنتـهم وأمكنتـهم ، لذلك وجد القبول في نفوسهم والطريق المعبد الميسر إلي قلـوبهم ، حتى من ناصبوه العداء أقروا بذلك طائعين .

وما كان الإعراض من بعضهم إلا من أجل المكابرة والعنـاد ، وخوف ضياع المكانة والمنزلة لدي القوم والأهل والعشيرة ، وشـاء الله تعالي أن يكون هذا البعض من زمرة الأشقياء والتعساء في الدنيا والآخرة { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عند غَيْرِ اللّه لَوَجَدُواْ فيه اخْتلاَفًا كَثيرًا } (النساء: ٨٢) { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلَـى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد: ٢٤)

وفي المقابل تهيأت له عقول وقلوب فتدبرت معاينـة وتأملـت تراكيبه وأساليبه بعمق وحب وعشق ، وهؤلاء السـعداء وجـدوا الراحة والطمأنينة في تلاوته ومعايشة آياته ، والمسارعة والمبـادرة في اتباع أحكامه والعمل بما فيه . {أَفَمَن شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} (الزمر: ٢٢)

ورغم كثرة الكتابات والمصنفات في هذا الموضوع قديما وحديثا إلا أن هناك ما يدق من مسائلة ويستتر من جزئياته ، ويحتاج إلي الكثير من التأمل والعميق من التفكير.

كنت أتصفح المثل السائر لابن الأثير ولفت نظري فصل من فصوله بعنوان (توكيد الضميرين) فأخذت أقرأ هذا الفصل بعناية ودقة ، وأعجبني طريقة العرض التي عرض بها هذا الموضوع من التنظيم الحسن والتقسيم المنظم والدقة المتناهية في الفهم والوقوف عند الأسرار والأغراض فهو قد تتبع هذا اللون في لغة العرب عامة وفي كتاب الله خاصة ، ويفسر ابن الأثير مراده من هذا العنوان فيقول "وأعني بقولي توكيد الضميرين : أن يؤكد المتصل بالمنفصل ، كقولك (أنك أنت) أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله كقولك (أنت أنت) أو يؤكد المتصل بمتصل مثله كقولك (إنك إنك لعالم) أو (إنك إنك لجواد) وإنما يؤتي بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة وهو من أسرار علم البيان.[1]

وقد أفدت من هذا التقسيم حيث جعلت كل قسم من هذه التقسيمات عنوانا لمبحث من مباحث هذا الموضوع مع شيء من التفصيل والتنويع

---

١ - المثل السائر ج٢ص ٢٠٣ . المؤلف ضياء الدين بن الأثير تحقيق / د أحمد الحوفي ، ود بدوي طبانة دار الرفاعي بالرياض طبعة ثانية.



ويبين ابن الأثير متي يكون المجيء بهذا اللون من باب أولي ومتي يكون فيه الخيار حيث يقول " إذا كان المعني المقصود معلوما ثابتا في النفوس فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر ، وإذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالأولي حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه لتقرره وتثبيته ".[1]

وابن الأثير في دراسته لهذا الموضوع كان مقلا من الأمثلة من كتاب الله فقد اكتفي ببضع آيات ، لكن له دعوة كريمة لمن يأتي بعده مثل قوله " وهذا موضع يدق عن العثور عليه بادرة النظر ، فلم يعط التأمل فيه حقه "[2] وقوله في موضوع آخر " وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه ، فتأمله.[3]

لذا وجدت نفسي تواقة للخوض في هذا الموضوع والوقوف علي بعض أسراره ، فأقبلت بكنه الهمة أجمع الشبيه إلي الشبيه والنظير إلي النظير أتأمل هذه الضمائر لأقف علي سر الإتيان بها علي هذا النحو.

يا فاتح الأبواب افتح لي أبواب الفهم وارزقني الإخلاص في القول والعمل .

يارب هيىء لنا من أمرنا رشدا

واجعل معونتك العظمي لنا سندا

---

١ - المثل السائر ج٢ص:٢٠٣.

٢ - المثل السائر ج٢ ص:٢٠٥.

٣ - المثل السائر ج٢ ص:٢٠٩.

## توكيد الضمير المفرد
## المخاطب المتصل بالمنفصل

وقد كثر التوكيد بهذه الطريقة في كتاب الله ومن ذلك قوله تعالي : {قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (٣٢ سورة البقرة)

ملائكة الرحمن يعترفون بمعجزهم ، ويقرون بعدم علمهم الذاتي ، وكل ما حصلوه من علم فهو من لدن عليم حكيم ، وبدأوا تضرعهم بتنزيه الله – تعالي – عما لا يليق به ، ثم أعقبوا ذلك بنفي العلم عن أنفسهم ، وأثبتوه لله وحده.

والاحظ براعة الاستهلال في الآية الكريمة ففي " إفتتاح كلامهم بالتسبيح ، ووقوفهم في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة ...– وفيه إيماء إلي الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء } فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار ، والاعتذار وأن كان يحصل بقولهم :{ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا} لكن حصول ذلك منهم بطريقة الكناية ، دون التصريح ، ويحصل آخرا لا ابتداءً ، فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجيلا بما يدل علي ملازمة الأدب العظيم " [1]

وأكدوا مرادهم بعدة تأكيدات ، منها حرف التوكيد (إن) ، واسمية الجملة ، والضمير المنفصل (أنت) مؤكدا للضمير المتصل (إنك) وأسلوب القصر المستفاد من اقتران وصف (العليم الحكيم)ب (أل) .

١– التحرير والتنوير ص٤١٤ ، ٤١٣ . الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس.



قال الآلوسى : {إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } تذييل يؤكد مضمون الجملة السابقة ، ولما نفوا العلم عن أنفسهم أثنوه لله – تعالي – علي أكمل أوصافه وأرد فوه بالوصف بالحكمة لما تبين لهم ما تبين ..... و (أنت) يحتمل أن يكون فصلا لا محل له علي المشهور يفيد تأكيد الحكم ، والقصر المستفاد من تعريف المسند ، وقيل هو تأكيد لتقرير المسند إليه ، ويسوغ في التابع ما لا يسوغ في المتبوع . وقيل مبتدأ خبره ما بعده [1]

وقال أبو السعود مشيرا إلي الحكمة من نفي عموم العلم عن أنفسهم ، لا نفي علم الأسماء فحسب " ولقد نفوا عنهم العلم بالأسماء علي وجه المبالغة حيث لم يقتصروا علي بيان عدمه ، بأن قالوا مثلا : لا علم لنا بها ، بل جعلوه من جملة ما لا يعلمونه . وأشعروا بأن كونه من تلك الجملة غني عن البيان " [2]

فنفي العلم المطلق أبلغ في نفي علمهم من نفي العلم بالأسماء ، كما أن نفي علمهم بالأسماء فحسب لا يفهم منه نفي علمهم بغيره ، وهذا غير مراد .

١–روح المعاني ج١ص٢٢٧:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:محمود الآلوسي أبو الفضل:١٢٧٠:دار احياء التراث العربي:بيروت.

٢– تفسير أبي السعود ج١ص٨٥. إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم:محمد بن محمد العمادي أبو السعود:٩٥١:دار احياء التراث العربي:بيروت

وكل هذه التأكيدات من قبل الملائكة ماذا تعني والمخاطب هم عالم السر وأخفي ؟! ، التأكيدات هنا دون ريب - وإنما ليست للمخاطب ، وإنما هي للنفس ، أو المطلق توكيد الأمر ، وتقريره ، أي أن العلم والحكمة ثابتان لله - تعالي- وحده ، وحصول ذلك لغيره صادر عنه ، وراجع إليه - تعالي - .

وذيلت الآية الكريمة بإثبات الحكمة والعلم له - تعالي- ، لأنه يلزم من نفي العلم عن أنفسهم ثبوته له تعالي ، وأن ما يطلع عباده عليه من المعلومات فإنما هو لحكمة يعلمها هو - تعالي - ، وما يحجبه عنهم كذلك.

قال الرازي : العليم ، من صفات المبالغة التامة في العلم ، والمبالغة التامة لا تتحقق إلا عند الإحاطة بكل المعلومات وما ذلك إلا هو سبحانه - تعالي- فلا جرم ليس العليم المطلق إلا هو ، فلذلك قال تعالي(إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (لا غيرك) علي سبيل الحصر. [1]

وهذا التذييل قدم فيه العلم علي الحكمة حتى يتناسب مع ما سبق من سياق في الآية الكريمة والتي قبلها ، قال الآلوسي " وقدم سبحانه الوصف بالعلم علي الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم من (أتجعل) و (لا علم لنا) ، ولأن الحكمة لا تبعد عن العلم ، وليكون آخر مقالتهم مخالف لما يتوهم من أولها " [2].

وفي الآية إشارة إلي أن ما يحصل عليه العبد من العلم لا بد من مصاحبة حكمة تضبطه ، فالعلم بدون حكمة وبال علي صاحبة ، والحكمة لا تتصور ولا تعقل بدون علم .

١- تفسير الرازي ج ١ص ٦٤٥ فخر الدين الرازي . دار الغد العربي مصر القاهرة .
٢- روح المعاني ج ١ص ٢٢٧ .



والشيخ عبد القاهر يفسر(إن) في مثل هذه التعبيرات أي إذا سبقت بكلام وليس المقام مقام إنكار أو تردد أنها للتعليل حيث يقول " ومن شأن (إن) إذا جاءت علي هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة ، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا ، فأنت تري الكلام بها مقطوعا موصولا - مثل قول بشار:

بكرا صاحبي قبل الهجير
إن ذلك النجاح في التكبير

وقول بعض العرب:

فغنها وهي لك الفداء
إن غناء الإبل الحداء

فإنه استغناء بذكر (أن) عن الفاء ، وإن خلفا الأخر لما سأل بشارا لماذا لم يقل (بكرا فالنجاح في التكبير) أحاطه بشار بأنه أتي بها عربية بدوية ، ولو قال (فالنجاح) لصارت من كلام المولدين. [1]

- وقال الشيخ في موضع آخر -" ألا تري أن الغرض من قوله (إن ذلك النجاح في التكبير) أن يبين المعنى في قوله لصاحبه(بكرا) وأن يحتج لنفسه في الأمر بالتكبير ، ويبين وجه الفائدة منه." [2].

وبعد أن عرفنا كيف كان خطاب الملائكة للذات العلية ، وكيف كان

١) دلائل الإعجاز ص ١٩٧ طبعة المنار
٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢ طبعة المنار

وكيف كان اعتذارهم واقرارهم بالعجز ، واعترافهم بعدم العلم الذاتي ، وكيف استخدموا في كل ذلك ضمير المخاطب الدال علي قربهم وأنسهم بربهم ، وتكرار هذا الضمير يدل علي ذلك ، فعند مقام التنزيه والتعظيم جاء ضمير الخطاب المتصل (سبحانك) وعند قصر وحصر العلم والحكمة فيه سبحانه استعملوا الضمير المتصل ب (إن) المؤكدة (إنك) وتأكيد هذا الضمير المتصل بضمير آخر منفصل (أنت) وما ذلك إلا زيادة في الأسف والاعتذار ، والحاح بعد إلحاح بابداء الأدب والندم ، والملائكة بهذا يعلمون الخلق كيف تكون مخاطبة الحق وكيف يعترف المخلوق بعجزه، وإذا كان هذا هو حال الملائكة وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فكيف بحال الغارق في ذنوبه والمقصر في حق ربه؟ هو جدير بأن يقف أمام هذه الآيات البليغات، وأن يعيش في محراب معانيها وما لبسته هذه المعاني من الألفاظ.

وقوله تعالي {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة الآية (١٢٧) .

والآية الكريمة أبرزت جانباً من الدعاء والتضرع وفي ذلك تعليم لسائر أفراد الأمة أن يسلكوا مسلك الأنبياء في ابتهالهم وتضرعهم إلي الله – تعالي – في قبول أعمالهم . لأن العمل وحده غير كاف ، ولا بد أن يصحبه الدعاء . وإذا كان هذا هو حال الأنبياء وهم خيرة خلق الله فما بالك بمن كانوا أقل رتبة في الإيمان ، وما بالك بمن هو عرضة لاقتراف الذنوب والمعاصي ووسوسة الشياطين.؟



هذا هو المنهج القويم والمسلك السديد ، عمل يعقبه الدعاء ، العمل بلا دعاء يخشى عليه من عدم القبول ، ودعاء بلا عمل يدخل في دائرة التواكل .

والطلب بطريق التأسي والإقتداء أجدي وأنفع هنا وفي مثله من المقامات الأخرى ، وان كان القرآن قد سلك الطلب المباشر في بعض المقامات لأنه أجدي وأنفع في مقاماته وبذلك يكون النظم الكريم قد جمع بين الطرق المختلفة مراعياً أحوال الناس واختلاف طبائعهم في استعدادهم للقبول.

وبدأت الآية الكريمة بالحديث عن رفع القواعد مستحضرة هذه الصورة المشرقة الدالة علي مسارعة الأنبياء للاستجابة والانصياع ، ولأن استحضار الصورة بالحديث عنها بالفعل المضارع وقد انتهي زمنها ، وأقوي في التأثير وأدعي للتأسي (وإذ يرفع) أيها التالي لهذه الآية الكريمة استحضر وتأمل بصرك وعقلك صورة نبي الله إبراهيم وهو يرفع قواعد البيت وهو أشرف البيوت وأنفعها ، وينبغي ألا تغيب هذه البداية عن سماء تأملك وعن أحاسيس قلبك ، فأنت في أمسّ الحاجة إليها في حلّك وترحالك إنها تعلي همتك وتقوي يقينك وصلتك بخالقك.

ثم أعقب ذلك بالاسم العلم (إبراهيم) لاستحضاره بعينه مجردا عن الألقاب والأوصاف ، ورغم ذلك فيه من التشريف والتكريم ما فيه ، خاصة وأن هذا صادر من ذي الجلال والإكرام . فإبراهيم عليه السلام اكتسب الرفعة من رفعة لقواعد البيت . فهو مرفوع موقعا وإعرابا في مكانته .

والمتأمل للآية الكريمة يجد عند التعبير عن القواعد ترك إضافتها للبيت ، فلم يقل قواعد البيت وإنما قال (الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) ولا ريب أن ما جاء عليه النظم الكريم أبلغ وأدق وأكثر فائدة ، لان التعبير بالإضافة يعتقد معه إثارة الانتباه وعنصر التشويق بالانتظار والترقب ، وكل هذه المعاني ملموسة وظاهرة فيما جاءت عليه الآية ، فالذي يسمع كلمة القواعد لا يدري أي قواعد لأنها مبهمة وتحتاج إلي بيان فجاء قوله (من البيت) ليزيل هذا الإبهام ، ولا ريب أن ما يأتي بعد إبهام أبلغ وأفضل مما يأتي ويفهم من أول وهلة .

وقد فطن جار الله الزمخشري بعقلة النير وحسه البلاغي إلي هذا المعنى اللطيف حيث قال " فإن قلت : هلا قيل :قواعد البيت ، أي فرق بين العبارتين ؟ قلت : في إبهام القواعد وتثبيتها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين. " [1]

ثم عطف إسماعيل علي إبراهيم وفصل بينهما بالمفعول ، ومعناه إن كليهما يدعو ، والعلة من تقديم إبراهيم عليه السلام والفصل بينه وبين إسماعيل عليه السلام ، أن الأب مقدم لأنه الأصل وخبرته بالبناء أقدم والمشاركة في البناء من قبل إسماعيل هي من المعاونة ، والفصل فيه إشارة لأمرين : الأول منزلة البيت ومكانته . والثاني لما بين الإبن والأب من فوراق وهذه رمز إليها بهذا الفاصل . ويكون المعني علي هذا التفسير : وإذا يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ويقولان ربنا وفي ذلك إيجاز زبديع بحذف القول وهذا

---

١- الكشاف جار الله الزمخشري ج (١) ص ٣١١ الناشر دار الفكر للطباعة والنشر.



وهذا أوجه عندي من إعراب (واسماعيل) حمله حالية لأن ذلك يجعل إبراهيم عليه السلام وحده هو الذي يبني واسماعيل وحده هو الذي يدعو ؛ إذ كيف يكون ذلك وإبراهيم عليه السلام هو في أمس الحاجة إلي الدعاء؟، وابنه إسماعيل عليه السلام هو في أمس الحاجة إلي المشاركة والمعاونة[1] !

واختصرت المسافات قولا وفعلا فحرف النداء في ربنا قد حذف حتى لا يكون سببا في تأخر الدعاء والذهاب إلي لفظ الربوبية المشعر بالشفقة والإكرام والجالب للتعطف والحنن.

قال أبو السعود : والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب ، مع الإضافة إلي ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الإجابة [2]

وبأي شيء كان الدعاء كان بشيء نفيس يتناسب مع أصحاب الهمم العالية ، ألا وهو قبول العمل "وترك مفعول تقبل مع ذكره في قوله تعالي {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من البناء"[3].

---

١- انظر تفسير أبي السعود ج-١ص ١٦٠

٢- تفسير أبي السعود ج-١ص ١٦٠

٣- تفسير أبي السعود ج-١ص ١٦٠

يذهب الآلوسي إلي أن "التقبل مجاز عن الإثابة والرضا، لأن كان عمل يقبله الله – تعالي– فهو يثيب صاحبة ويرضاه منه .....وفي اختيار التفعل اعتراف بالقصور لما فيه من الإشعار بالتكلف في القبول ، وإن كان التقبل والقبول بالنسبة إليه تعالي علي السواء إذ لا يمكن تعقل التكلف في شأنه عز شأنه ، ويمكن أن يكون المراد التقبل الرضا فقط دون الإثابة ، لأن غاية ما يقصده المخلصون من الخدم وقوع أفعالهم موضوع القبول والرضا عند المخدوم ، وليس الثواب مما يخطر لهم ببال ، ولعل هذا هو الأنسب بحال الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام"[1]

و جاءت (إن) التعليلية لتدل علي أن طلب التقبل من الذي يسمع تضرعهم ، ويعلم سرهم ونجواهم ، قال الآلوسي : " تعليل لاستدعاء التقبل "[2]

وتري تأكيد الضمير بالضمير في صور هذا التذييل الذي دل علي عميق تعلقهم بالله ، وتوجه قلوبهم إليه وحده واستحضارهم لعظمته ، وفا في تكرار ضمير المخاطب بلونين مختلفين ضمير الخطاب المتصل الكاف وضمير المخاطب المنفصل (أنت) – من استجلاب التعطف والتحنن والشفقة والرحمة ، وهذا هو عين ما يتطلبه التقبل.

١– روح المعاني ج(١)ص٣٨٤–٣٨٥

٢– روح المعاني ج(١)ص٣٨٥



ورفع القواعد ليس بالأمر الهين ولا اليسير ولذلك احتاج إلي هذا القدر من المخاطبة والتوجه وتكرار ضمير بلونين مختلفين.

ويشير الآلوسي إلي مغزى الحصر في الآية وإلي فائدة التوكيد ، والعلة من تقديم السمع علي العلم حيث يقول " والمراد السمع لدعائنا والعليم بنياتنا ، وبذلك يصح الحصر المستفاد من تعريف المسندين ، ويفيد نفي السمعة والرياء في الدعاء والعمل الذي هو شرط القبول ، وتأكيد الجملة لإظهار كمال قوة يقينها بمضمونها ، وتقديم صفة السمع ، وإن كان سؤال التقبل متأخرا عن العمل للمجاورة ، ولأنها ليست مثل العلم شمولا "[1]

ويستمر الدعاء من نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} سورة البقرة (١٢٨) .

ولفظ الرب يكرر مرة ثانية هنا لأن المدعو به أمر آخر وهو إسلام الوجه لله والانقياد له ، أو الإخلاص في الأعمال ، وهذا لا يملكه هو سبحانه .

وافتتح هذا الدعاء بلفظ الربوبية جليا للتعطف والتحنن ، لأن المربي يشفق علي مربية .

ومعني (مُسْلِمَيْنِ لَكَ) أي " مخلصين لك ، أو مستسلمين من أسلم إذ استسلم وانقاد ، وأيا ما كان فالمطلوب الزيادة والثبات علي ما كانا عليه من الإخلاص والإيمان "[2]

١– روح المعاني ج –(١) ص ٣٨٥

٢– تفسير أبي السعود ج–(١) ص ١٦١

والأول أولي نظرا لمقصدهما ، وإن كان الثاني أولي بالنظر إلا أنه
أنسب في إظهار الإنقطاع إليه جل جلاله"[1]

وقراءة ابن عباس بجمع (مسلمين) [2] يراد منها الدعاء لهما ولغيرهما من كافة أهل الإيمان في زمانهما وغيره ، ومعلوم أن التعميم في الدعاء أرجي لقبوله ، وفيه إشارة إلي حب الخير للغير ، والإيثار وغير ذلك خاصة وهما مناط الأسوة ومحل القدوة ، وهذا المعني أولي من كون المراد بالجمع المثني.

والفعل (اجعل) بمادته ودلالته يشير إلي حرصهما الشديد علي تسيير ذاتهما وتصرفاتهما وأحوالهما ورغباتهما منقادة لله – تعالي – ، وهذا أبلغ ما يكون في الطلب.

وقدما مرادهما وهو (مسلمين) علي ضميره تعالي (لك) لأنهما قدما قبل ذلك قولهما (ربنا) وقوله (لك) هو معلوم من الكلام السابق ، ومعلوم أن الإسلام لا يكون إلا لله فجاء قوله (لك) بمثابة التأكيد ، وقوله (لك) يفيد الحصر أي لك لا لغيرك ، إسلام لا تشوبه شائبة الشرك ، أو أعمال وطاعات لا يشوبها رياء.

وقدما أنفسهما علي ذريتهما لأن من شأن الأمور المتعلقة بالعقيدة وما تبعها تقديم النفس ثم الذرية ثم الأهل قال تعالي{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (٦) سورة التحريم.

---

١- روح المعاني ج١ ص ٣٨٥
٢- انظر روح المعاني ج١ ص ٣٨٥



ومن أهم مستلزمات الوقاية من النار الانقياد والإخلاص لله تعالي.

ثم بعد الدعاء لأنفسهما جاء الدعاء لذريتهما ، وهذا يرشدنا ويدلنا علي اهتمام المسلم بأهله وذريته وأن يدعو لهم بكل ما فيه صلاحهم ، وذلك بعد الدعاء لنفسه . وتأتي من التبعيضية في قوله (ومن ذريتنا) لتدل علي علمهما أن بعض الذرية لن يتحقق فيه هذا الوصف ، أو أن (من) ليست للتبعيض ولكنها للبيان ، فيكون في الكلام تقديم وتأخير أي أجعل أمه مسلمة من ذريتنا وهي أمة محمد – صلي الله علية وسلم –"[1]

أي أن إعادة الضمير في قوله (لك) بعد ذكره لتأكيد ذلك المعني ، وفيه إشارة إلي التلذذ بالمداومة علي ذكر الله ومخاطبته ، وفي إضافة الذرية لهما إشارة إلي الاهتمام بهم والاهتمام برعاية شؤونهم ، وخاصة فيما يتعلق بالعقيدة والتشريع ، وفيه أيضا طلب للتعطف والتحنن .

ولما كان الإسلام لا ينوب فيه أحد عن أحد تكرر طلبه ،، ففي المرة الأولي كان لهما ، وفي المرة الثانية طلبا ذلك للذرية ، أما تعلم المناسك فلم يطلباها إلا لهما وذلك لأن المناسك إذا وقعت منهما حصل التأسي والتقليد ، ولم يقولا وأرهم مناسكهم .

---

١- انظر روح المعاني ج(١)ص ٣٨٥

قال الرازي في معني قوله (وأرنا مناسكنا) " في (أرنا) قولان .
الأول : معناه علمنا شرائع حجنا إذ أمرتنا ببناء البيت لنحجه وندعو الناس إلي حجه فعلمنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نأتيه فيه من عمل وقول ، ومجاز هذا من رؤية العلم .... والثاني : أظهرها لأعيننا حتى نراها" [1]

والترتيب هنا مطلوب ومراد فطلبا معرفة المناسك بعد تحقق الإسلام وتوفره ، إذ المناسك بدون الإسلام لا ثمرة من فعلها ، وإضافة المناسك إليهما إضافة رغبة وحرص وحب فالنفوس تواقة إلي معرفة النسك للالتزام بها والمحافظة عليها ، وهذا منهج تعليمي توضيحي لأنه صادر ممن هما مناط القدوة والأسوة.

وفعل المناسك والإتيان بها لا يسلم من الخلل والنقص وإن لم يكن ذلك منهما فمن الأمة التي ذكراها لذلك أعقباه بقولهما (وتب علينا) أو هو اقام لأنفسهما بالتقصير من باب التذلل والخضوع والانكسار.

ووجه أبو السعود لصدور طلب التوبة منهما بقوله استتابة لذريتهما ، وحكايتهما عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان ، أو توبة لهما على ما فرط منهما سهوا ، ولعلهما قالاه هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما " [2]

وجعل الآلوسي قوله (إنك أنت التوّابُ الرّحيمُ) من باب التعليل أي : تب علينا لأنك أنت أهل لذلك ، حيث قال " تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة [1]

١- تفسير الرازي ج(٤) ص (٤٢١)
٢- تفسير أبو السعود ج(١) ص (١٩١)



والتأكيد من باب اقحام النفس بالتقصير أي : إقناع النفس رغم التقصير فهو سبحانه تواب رحيم .

والضمير المنفصل (أنت) جاء بعد الضمير المتصل(إنك) حرصا منهما علي تكرار ذكر هما لله سبحانه وطمعا في زيادة الثواب والتلذذ بالقرب والمواجهة .

" والتواب الرحيم صيغتان من صيغ المبالغة ، لأن فعال وفعيل من صيغ المبالغة " [2] وحرصهما علي هاتين الصيغتين دليل شدة حرصهما علي طلب المزيد من التوبة والرحمة .

وتذييل الآية بالتواب الرحيم لأن التوبة تتناسب مع قولهما (وتب علينا) أما الرحمة فتدل على أن التوبة بمحض رحمته، أو أنها بط التوبة ويطلبان معها شيئا لا غني عنه لمخلوق وهو الرحمة .

وتقديم التوبة للمجاورة ، وتأخير الرحمة لعمومها ولكونها أنسب بالفواصل" [3] .

وتستمر المناجاة ويستمر الدعاء والتضرع من النبيين الكريمين {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (١٢٩) سورة البقرة .

وتكرار لفظ (ربنا هنا) للمرة الثالثة ولتكرار هذا اللفظ أسرار وأغراض منها : تلذذ الحبيب بكثرة ذكره لمحبوبه

١- روح المعاني ج(١) ص (٣٨٦)
٢- صفوة التفاسير ج(١) ص(٩٥) دار التراث العربي القاهرة محمد علي الصابوني
٣- روح المعاني ج (١) ص(٣٨

ولفظ الربوبية المشعر بالتربية وطلب الرأفة والتحنن وإلي غير ذلك مما يشعر به هذا اللفظ ، وتعليم أهل الإيمان المداومة والمواظبة علي الدعاء ، وتكرير لفظ الرب مع كل مطلوب خاصة وأنها مناط الأسوة ومحل القدوة .

ووظيفة الأنبياء تحتم عليهم هذا الطلب وتغرس في نفوسهم حب الخير للذرية ، وهذا لا يتم إلا ببعثة رسول منهم يعلم لغتهم ويعرف أحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وعندما يكون منهم يحرص علي جلب النفع لهم والإخلاص في نصحهم ، وهذا ما رأيناه كثيرا مما حكاه القرآن عن الأنبياء السابقين المبعوثين في أقوامهم ، فكان النبي منهم يكثر من (يا قوم) يذكرهم بأنه منهم وأنه حريص علي نفعهم ودفع الشر عنهم .

وقوله (فيهم) يدل علي شدة التمكن منهم والتغلغل فيهم ، وهذا ما كان محققا في النبي – محمد صلي الله عليه وسلم ، إذ كان يلقبونه قبل بعثته بالصادق الأمين ، كما كانوا يحكمونه فيما شجر بينهم ، وكل هذا ظهر أثره الطيب في استجابة بعضهم لدعوته والانضمام تحت لوائه ، وإن كان هذا قد ضعف وقل بعد البعثة مباشرة إلا أنه تم مع الأيام بعد معرفة الحق والوقوف علي الحقيقة . فعظم – صلي الله عليه وسلم – في نفوس أصحابه فكانوا يحبونه أكثر من أموالهم وأولادهم بل وأنفسهم ، وهذا المترتب علي قوله (فيهم) وقوله (منهم) .

وقوله (يتلو عليهم آياتك) المراد به ما يترتب علي ذلك من شدة الانفعال والتأثر ، وفي إضافة الآيات إليه تعالي ما يحمل علي ذلك ويدعو إليه ، والتعبير بالمضارع (يتلو) يدل علي الاستمرار



في التلاوة مهما كلفة ذلك من تبعات ومشقات ومنغصات ، فقد جربا الدعوة وما تكلفة فإعراض القوم لا يكون سببا في الكف عن التلاوة.

والمدعو به في الآية الكريمة ، تلاوة الآيات عليهم ، وتعلمهم الكتاب والحكمة ، وتطهيرهم ، وهكذا كان الترتيب في هذه الآية في سورة البقرة ، أما في سورة آل عمران {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } (١٦٤) سورة آل عمران) وفي سورة الجمعة (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) الجمعة آية (٢) فجاءت التزكية متوسطة بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة في هاتين الآيتين والتزكية جاءت متأخرة في سورة البقرة .

وقد فطن إلي معرفة سر هذا الترتيب صاحب ملاك التأويل فقال – في سورة البقرة " قوله تعالي {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (١٢٩) سورة البقرة ، وفي آل عمران {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (١٦٤) سورة آل عمران ، فقدم في الأولي (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) وأخر ويزكيهم وورد في السورتين بعد علي العكس من ذلك فلسائل أن يسأل عن وجه ذلك.

والجواب عنه – والله أعلم – أنه لما كانت دعوة إبراهيم ، عليه السلام ، قبل وجود الضلال في الذرية المدعو لها وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم بالوقوع وقوعه بما يمحونه من التعليم وما يتلى من الآيات لأن ذلك السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذ وفقوا للانقياد له ، ألا ترى أن ارتباط التزكية بأعمال الطاعات، قال تعالى : (خذ من {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} ، وإنما كانت تزكية لهم بانقيادهم للطاعة فيما يطلبهم به من ذلك ويأخذه منهم ، فتأخر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل وذلك بعد هدايتهم للإيمان ، فجاء على الترتيب من بناء السبب على سببه . ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم ، عليه السلام ، أخر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامتن عليهم وهو ثاني السببين ، فكان الكلام في قوة أن لو قيل : ويعلمهم ما به زوال ضلالهم ، وأخر في هاتين الآيتين ذكر السبب ليوصل بمسببه الأكيد هنا الذي كان قد وقع وهو رفع ضلالهم من عظيم محنته ، ولو أخر ذكر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا . فاختلاف الترتيب إنما هو بحسب اختلاف المقصدين وروعي ما ذكر ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم بما أراد " [1]

وذيلت الآية بقوله (إنك أنت العزيز الحكيم) وذلك بعد هذا الطلب المهم النافع للذرية ، وحرصهم على تحققه جاء إقناع النفس بكل

١- ملاك التأويل ج(١)ص٢٣٥-٢٣٦) . المؤلف أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ت: تحقيق سعيد الفلاح / الناشر / دار الغرب الإسلامي بيروت.



مقنع والتأكيد لها بكل مؤكد ، وهكذا يكون مقام الرجاء ، فالراجي يقف موقف الذليل المتهم لنفسه ، والشاك في قربه من ربه بسبب ما فرط منه ، وكان يكفي أن يقولا إنك العزيز الحكيم ولكن جاء بالضمير المنفصل (أنت) ليكون مؤكدا للضمير المتصل وهو الكاف في (إنك) وتكرار الضمير تكرار لذكر الله وتلذذ بالإكثار من المناجاة بتطويل زمن الخطاب .

وما ذهبت إليه هنا من فائدة التوكيد هو أوجه مما ذهب إليه أبو السعود من كون التأكيد للتعليل " [1]

وما علاقة هذا التذييل بما تضمنه الآية الكريمة من دعاء ، نعم توجد علاقة وطيدة وصلة وثيقة ، فبعثة الرسول من جنسهم ولغته هي لغتهم ويداوم على تلاوة الآيات بلا كلل ولا ملل ويطهرهم من كل ما يشينهم ، كل ذلك يحتاج إلى قوة وغلبة ومنعة ، ولكن لابد أن تكون هذه العزة مصحوبة وصادرة عن حكمة فكل فعل لم يصدر عن حكمة تخشى عاقبته ، فكأنهما قالا أنت قادر على فعل ذلك فإن فعلته فلحكمة تعلمها وإن تركته فلحكمة تعلمها.

وتقديم العزة يتناسب مع حرصها الشديد على تحقيق مطلوبهما.

والراسخون في العلم يؤمنون بالمحكم والمتشابه لأن المحكم من عند الله والمتشابه كذلك ثم يتضرعون إلى الله أن يثبت قلوبهم على هذا اليقين وذلك في قوله تعالى {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} (٨) سورة آل عمران .

١- انظر تفسير أبي السعود ج (١)ص.

وحل أهل التفسير ذهبوا إلي أن هذا الدعاء صادر من الراسخين في العلم ومعظمهم ذكر أن الدعاء مستأنف . وأرجح الرأي الأول لأنه يسجم مع السياق فأهل الرسوخ ما آتاهم هذا الوصف إلا بفضل الله ورحمته . فهم أهل رسوخ في العلم ، وأهل إيمان وأهل تسليم وأهل هداية ، ويطلبون أن يثبتهم الله علي ذلك.

والعبد مهما أوتي من فضل فإنه فقير إلي مرضاة ربه ورحمته ، فالذين ذكرت الآية أوصافهم رغم ما هم فيه يطلبون الرحمة ، لان الرحمة لا يخرج منها شيء من الفضل وهو مطلب عام حتى يشمل كل شئ في كل وقت وكل مكان في الدنيا وفي الآخرة . وهذا تعليم لأهل الإيمان أنهم في أمس الحاجة إلي رحمته .

وقولهم (هب) يدل علي أن ذلك بمحض فضل الله لا مقابل عبادة أدوها ، أو صفات تحلو بها ، أو مقابل ما ذكر من أوصاف فيما سبق .

وخصوا أنفسهم بهذا الدعاء لما ذكروا في مقابل من في قلوبهم زيغ ، والذين في قلوبهم زيغ لم يصلوا إلي هذه المرحلة من طلب فهم في حاجة أولا إلي إزالة هذا الزيغ ، ثم يحل الإيمان والرسوخ في العلم وغير ذلك ، ثم يكونوا أهلا لتشريكهم في هذا الدعاء ، ولا أستبعد أن يكون هذا الدعاء لهم ولغيرهم ، أن لم يخصوا أنفسهم به .

ويأتي هنا التأكيد بـ "إن" وأهل التفسير كثيرا ما يقولون أنه للتعليل ، وأنا أضيف إلي هذا التعليل التوكيد وهو للمتكلم وليس



للمخاطب وهو اقام للنفس بالتقصير في جانب الله تعالي ، وفي مقام الدعاء لابد من التظاهر بهذا لأنه من أسباب الإجابة .

وتوكيد الضمير بالضمير يشير كما أشرت فيما سبق إلي أن مقام الخطاب فيه تلذذ من المتضرع ، فهو يريد أن يطيل زمن المناجاة ، والتكرار يحقق له غرضه ويكمل له لذته ،كما أنه يفيد حصر ذلك المعني فيه تعالي وحده دون شريك له .

وفي مقام الاحتجاج ورد قوله تعالي علي لسان نبي الله عيس عليه السلام {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (١١٨) سورة المائدة .

والغرض من التوكيد بالضميرين في الآية هو إقامة الحجج لأن الأمر عظيم والخطر جلل حيث يتعلق بقضية هي من أخطر القضايا ، وهي ادعاء أن عيس عليه السلام وأمه إلاهان ، ولما كانت القضية عظيمة لزمها هذا اللون العظيم من التعبير . وذيلت الآية بقولك (وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وكان من المتوقع أن يقول فإنك أنت الغفور الرحيم وذلك لأن الله {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}فإذا حصلت المغفرة فى هذا المقام الذى يناسبه العذاب فإن ذلك صادر عن عزة وغلبه وحكمة ، لأنه تعالي لا يسأل عما يفعل.

وساق صاحب المثل السائر مثالا لهذا اللون وهو قوله تعالي : {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى} سورة طه الآيتان (٦٧-٦٨) " فتوكيد الضميرين ها هنا في قوله تعالي (إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى) وهذا ما قاله الزمخشرى فى الغرض من التوكيد فى الآيه انفي للخوف من قلب موسي ، وأثبت في نفسه للغلبة والقهر ، ولو قال : لا تخف إنك الأعلى . أو فأنت الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف ما لقوله (إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى )

وهذا ما قاله الزمخشري في الغرض من التوكيد في الآية "[1].

(إنك أنت الأعلى) فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالابتداء وبكلمة التشديد وتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل[2].

والفوائد الست التي اشتمل عليها قوله (إنك أنت الأعلى) والتي ذكرها الزمخشري مجملة قد ذكرها ابن الأثير بشيء من التفصيل حيث قال: وفي هذه الكلمات الثلاث وهي قوله: (إنك أنت الأعلى) ست فوائد:

الأولى: (إن) المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، كقولك (زيد قائم)، ثم تقول (إن زيدا قائم) فهي قولك (إن زيدا قائم) من الإثبات لقيام زيد ما ليس في قولك (زيد قائم).

الثانية: تكرير الضمير في قوله: (إنك أنت) وليس التكرير على أحد الضميرين إلا كان فائدة التكرير الغلبة والقهر، والإثبات للقهر.

الثالثة: لام التعريف في قوله (الأعلى) ولم يقل (أعلى) ولا (عال) لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره، وكان صالحا لكل واحد من جنسه، كقولك (رجل) فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال، ولما أتى (الرجل) فقد خصصه من بين الرجال بالتعريف، وجعله علما فيها، وكذلك جاء قوله تعالى: (إنك أنت الأعلى)

---

١- نقل السمين في الدر المصون ج(٢) ص(٢٠٥) النوائد ستة

نقلا عن ابن الجوزي وأحد تعقبه بقوله: وفيه نظر فإنه ذكر في النوائد ما ليس بفائدة

٢- نقل السمين في الدر المصون ج(٢) ص ٢٠٥، ٢٠٦



الرابعة: لفظ (أفعل) الذي من شأنه التفضيل، ولم يقل (العالي)

الخامسة: إثبات الغلبة له من العلو لأن الغرض من قوله (الأعلى) أي: الأغلب، إلا أن في الأعلى زيادة، وهي الغلبة من عال.

السادسة: الاستئناف، وهو قوله تعالى (لا تخفْ إنك أنت الأعلى) ولم يقل (لأنك أنت الأعلى) لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا، وإنما نفى عنه الخوف أولا بقوله (لا تخف)، ثم استأنف الكلام، فقال (إنك أنت الأعلى) فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء، وأنست لذلك في نفسه.[1]

الغرض من توكيد الضمير المتصل بالمنفصل هو نفي الخوف واقتلاعه من جذوره من قلب نبي الله موسى عليه السلام وإثبات وتأكيد الغلبة، وكل ذلك يجعله عليه السلام يقدر على الإلقاء بنفس واثقة وقلب مطمئن خاصة وأن هذا التأكيد صادر من خالق القوى والقدر وعالم السر وأخفى.

وقال البيضاوي (إنك أنت الأعلى) "[2] تعليل للنهي وتقرير للغلبة مؤكدا بالاستئناف، وحرف التحقيق وتكرير الضمير، وتعريف الخبر) ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصفة التفضيل" كلام البيضاوي هذا مأخوذ أيضا من كلام الزمخشري.

إذا كان تكرار الضمير يفيد المبالغة والتوكيد فلماذا اشتملت بعض الآيات على ضمير واحد أي من غير أن يكرر، لقد أثار هذا السؤال ابن الأثير وأجاب عنه أجابة شافية مرضية مسهبة حيث يقول: وربما وقع لبعض الأغمار أن يعترض علي ما ذكرناه في توكيد

---

١- الكشاف ج٣ص ٧٢ دار الكتب العلمية

٢- تفسير البيضاوي ج(٤) ص(٥٩-٦٠) وأبو السعود ج (٦ ص(٢٧٦، ٢٧٧) ط دار الفكر ١٤١٦-١٩٩٦ الطبعة عبد القادر عرفات الله.

أحد الضميرين بالآخر ، فيقول لو كان توكيدهما أبلغ من الاقتصار علي أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالي نفسه ، حيث هو أولي عما هو أبلغ وأوكد من القول وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالي وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر ، كقوله عز اسمه {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ولم يقل إنك أنت علي كل شيء قدير فما الموجب لذلك إن كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار علي أحدهما . الجواب عن ذلك أنا نقول قد قدمنا القول في أول هذا النوع أنه إذا كان المعني المقصود معلوما ثابتا فصاحب الكلام مخير في توكيد أحد الضميرين بالآخر فإن أكد فقد أتي بفضل بيان وإن لم يؤكد فلأن ذلك المعنى ثابت لا يفتقد في تقريره إلى زيادة كهذه الآية المشار إليها وهي قوله تعالي (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ) فإن العلم بأن الله علي كل شيء قدير لا يفتقر إلي تأكيد يقرره ، وقد ورد ما يجري مجري هذه الآية مؤكدا كقوله تعالي {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} فأكد في هذه الآية ولم يؤكد في الآية الأخرى ، وقد عرفتك الطريق في ذلك ، وأما إذا كان المعني المقصود غير معلوم وهو مما لا يشك فيه فالأولي أن يؤكد بالضميرين في الدلالة عليه كقوله تعالي (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ) فإن موسي لم يكن متيقنا أنه غالب للسحرة فلذلك وكد خطابه بالضميرين ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه.[1]

{فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} (٦٤) سورة الأنبياء

١- الفلك الدائر ج ٢ ص ٢٠٦، ٢٠٧.



## توكيد المتصل المتكلم بالمنفصل المتكلم

وقد ورد الانتقال من المتصل المتكلم إلي الضمير المنفصل المتكلم في عديد من الآيات ، ولأن تكرار الضمير فيه علته ظاهرة والتوكيد والغرض منه واضح أخرته واقللت من التفصيل فيه.

قصة نبي الله موسي عليه السلام مع فرعون قد ذكرها القرآن في مواطن عديدة ، وفي كل موطن نري الأسلوب يتباين ويتفاوت عن بقية المواطن ، وما ذلك إلا لتنوع العظات والعبر ، واختلاف المواقف والمشاهد .

ففرعون بصلفه وغروره وكبريائه أبدي هيمنته علي متبعيه ، تارة بالتهديد والتخويف وتارة بالتحبب والتودد ، وغير ذلك ، ولكن القرآن أتى بأقوى الأساليب التي تقتل صلفة وغروره وتبرهن علي شدة كذبه وافترائه . ومن أهم القضايا التى كان فرعون يروج لها ، ويحاول إقناع أتباعه وأتباع نبي الله موسي – عليه السلام أنه لا إله غيره {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (٣٨) سورة القصص ، وأنه هو الرب الأعلى) {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ} (٢٤) سورة النازعات ، ومن ردود القرآن الحاسمة علي هذه الدعاوى الباطلة الباسلة ما خاطب الله به نبيه موسي –عليه السلام – وكل متبع لشريعته ، أو كل من تسول له نفسه أن يرتاب في هذا المنهج القويم

{إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} (١٤) سورة طه .

فأكد الضمير المتصل (إني) بالضمير المنفصل (أنا) لشدة تأكيد بطلان ما دعا إليه فرعون ، وبطلان ما أجهد نفسه في الترويج له ، وتثبيت أتباع موسى عليه السلام على ما هم عليه من الحق ، وتنفير من سولت لهم أنفسهم الانصياع لتهديد فرعون ، أو الطمع في وعوده الكاذبة .

(إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) بدل مما يوحي دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم ، والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتها وهو تذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره.[1] والفاء في قوله تعالى (فَاعْبُدْنِي) لترتيب المأمور به على ما قبلها فإن اختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل.[2]

وفي مقام آخر يأتي التوكيد بالضمير المنفصل للضمير المتصل وفي هذه المرة الغرض منه زيادة الثقة في النفس واقتلاع الخوف من جذوره ، فمن كان معه رب العالمين المتفرد والمتوحد بالألوهية فلا يبالي بعد ذلك بمن سواه ، وفي ذلك من التكريم والمعية ما فيه .

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (٣٠) سورة القصص

١- تفسير البيضاوي ج:٤ص:٤٤

٢- تفسير أبي السعود ج:٦ ص:٨



قال البيضاوي : هذا وإن خالف ما في طه والنمل لفظا فهو طبقه في المقصود .[1] وقال القرطبي نفي لربوبية غيره سبحانه ، وصار هذا الكلام من أصفياء الله – عز وجل – لا من رسله لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .[2]

وقد اشتمل هذا الأسلوب على عدة تأكيدات منها التوكيد ب (إن) واسمية الجملة ، وتوكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، وأسلوب القصر الذي اختير طريق النفي والاستثناء ، ولا يخفى ما في ذلك من دلالة ، واستحضار لفظ الجلالة المفيد لتربية المهابة والاهتمام بالأمر الذي سيأتي بعده .

ويأتي تأكيد الربوبية المشعر بالمؤانسة والقرب والتحنن بعد هذه الوحشة التي أصابته والخوف الذي صحبه حينا من الدهر من بطش فرعون وكيده وصلفه .

{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} (١٢) سورة طه

ويوسف عليه السلام يأتي بالتوكيد المطمئن والمذهب للخوف والحزن ، والجالب للأمن والأمان أي أنا أخوك الوحيد المستحق لهذه التسمية ، فلا تحزن ولا تخف فأنت الآن آمن . وقد دخلت في كنف الأمان والطمأنينة . (إني أنا أخوك) ولم يعتد بأخوة الآخرين وجعلها كالعدم ، لأنهم ما رعوها حق رعايتها .

١- تفسير البيضاوي ج:٤ص:٢٩١

٢- تفسير القرطبي ج:١٣ص:٢٨٣ الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله:٦٧١دار الشعب : القاهرة:١٣٧٢ الطبعة: الثانية المحقق :أحمد عبد العليم البردوني

{وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٦٩) سورة يوسف ، وأيضا قوله تعالي {وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} (٨٩) سورة الحجر .

ولون آخر من توكيد الضمير المتكلم المتصل بالضمير المستكلم المنفصل وهو حديث المفرد عن نفسه بضمير الجمع والذي يقصد به تعظيم المتحدث لنفسه ، ولم أجد في كتاب الله من يتحدث عن نفسه بضمير الجمع ، وهو واحد إلا الله – سبحانه وتعالي – فهو وحده المستحق للعظمة والكبرياء حقيقة ، أما المفرد المتحدث عن نفسه بضمير الواحد فقد ورد في حق الله – تعالي – وفي حق غيره ، والوارد منه في حق الله–تعالي–هو الأكثر والغالب .

ولاحظت أن الضمائر الخاصة بالذات العلية تكون بصيغة المفرد إذا كان الحديث عن تأكيد إثبات الألوهية ، أو الوحدانية ، أو الربوبية ، {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} (١٤) سورة طه {إِنِّي أَنَا اللَّهُ} {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ} وإذا كان الأمر يحتاج إلي عظمة وعزة ومنعة وغلبة وقدرة يأتي الضمير بلفظ الجمع (إنا نحن) كما سيأتي .

لا ريب أن نزول القرآن الكريم ، والمحافظة عليه من التحريف والتبديل والتغيير كل ذلك يحتاج إلي قدرة وعزة وتأكيد بأقوى التأكيدات حتى يقطع السبيل أمام المرتابين والمنكرين والمعاندين.

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (٩) سورة الحجر



رد لإنكارهم واستهزائهم ، ولذلك أكده من وجوه ، وقرره بقوله (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) أي من التحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزا. (١)

وقيل : رد لإنكارهم التنزيل ، واستهزائهم برسول الله – صلي الله عليه وسلم – بذلك وتسلية له ، أي نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ، ونسبوك بذلك إلي الجنون. (٢)

وجيء بالجملة الاسمية مؤكدة بتأكيدين وتسب فيها الحفظ المحذوف متعلقة إفادة للعموم إلي ضمير العظمة وفي ذلك من الدلالة علي الاعتناء بأمر القرآن ما فيه. (٣)

وكثرت أقوال المنكرين حول القرآن فمنهم من قال إنه سحر ، ومنهم من قال إنه من كلام البشر ، ومنهم من قال إنه أساطير الأولين ، وغير ذلك مما حكاه القرآن الكريم عنهم ، فأراد سبحانه وتعالي أن يمحو آثار ما قالوه .

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} (٢٣) سورة الإنسان

أي مفرقا منجما لحكم بالغة مقتضية له لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير . (٤) وأيضا (إن) واسمية الجملة ، واختيار الفعل المشدد

---

١ – تفسير البيضاوي ج:٣ ص: ٣٦٢

٢ – تفسير أبي السعود ج:٥ص:٦٨

٣ – روح المعاني ج:١٧ص :١٨٢

٤– تفسير أبي السعود ج:٩ص:٧٥

(نزلنا) وتأكيده بالمصدر (تنزيلا).

ومن أهم ما ينكره أهل الكفر والشرك الحياة بعد الموت ، وما يترتب على ذلك من الحياة الآخرة ، وهذا الإنكار يحتاج إلى قدر كبير من التأكيد ، ولذلك عندما يتناول القرآن الكريم هذه القضية يأتي بالأساليب القوية والمقنعة من شأن هذه الأساليب أنها تثبت أهل الإيمان وتكون وقاية مانعة من تسرب الأفكار الخبيثة إلى الأذهان ، وتجعل أهل الضلال يفكرون كثيرا في عاقبة غيهم ، فكثير منهم يفصل قوة هذه الأساليب يؤوب إلى رشده ، ويعود إلى الحق ، ومن ذلك قوله تعالى . {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (١٢) سورة يس ، ذيل عام للفريقين المصممين على الكفر ، والمشفعين بالإنذار ، ترهيبا وترغيبا ووعيدا ووعدا ، وتكرير الضمير لإفادة الحصر ، أو للتقوية ، وما ألطف هذا الضمير الذي عكسه كطرده ههنا وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار .[1]

والإحياء والإماتة أمران يحتاجان إلى قدرة وغلبة لذلك أتى في الحديث عنهما بضمير الجمع فقال تعالى:

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ} (٤٣) سورة ق.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ) في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا .[2] والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث .[3]

١- روح المعاني ج ٢٢ ص ٢١٨

٢- تفسير أبي السعود ج ٨ ص ١٣٥

٣- فتح القدير ج ٥ ص ٨٦ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني ١٢٥٠ هـ الناشر بيروت



إن ميراث السماوات والأرض ورجوع العباد إلى الله يوم الحساب كل ذلك يحتاج إلى قدرة وغلبة ، ولذلك قال فيه (إنا نحن) وهذا الأمر محل إنكار من الملحدين والمشركين ومحل ارتياب من طائفة منهم لذلك ناسب أن يأتي بكل هذه التأكيدات.

{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} (٤٠) سورة مريم.

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا) لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك ، أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفي الوارث لإرثه.[1]

١- تفسير البيضاوي ج ٤ ص ١٧

## توكيد الضمير المخاطب المتصل بالمخاطب المتصل

والضمير المتصل تراه في بعض المواضع يؤكد بالضمير المتصل وذلك إذا تطلب المقام هذا النوع من التوكيد وقد ذكر صاحب المثل السائر مثالا لذلك وهو قوله تعالي : في سورة الكهف

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۞ {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} (الكهف : ٧٤،٧٥).

وابن الأثير قد وفق إلي معرفة الفرق الدقيق بين هذا الموقف وقصة السفينة حيث قال " وهذا بخلاف قصة السفينة فإنه قال فيها : ({ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} (٧٢) سورة الكهف والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولي (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ....) وقال في الثانية ( أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ)

وانما جيء بذلك للزيادة في مكافحة العتاب علي رفض الوصية مرة علي مرة ، والوسم بعدم الصبر. (١)

وهذا الذي قاله ابن الأثير هو كلام الزمخشري وإن لم يشر إلي ذلك ، قال الزمخشري " فإن قلت: ما معني زيادة { لك} ؟

قلت : زيادة المكافحة بالعتاب علي رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية" (٢)

---

١- المثل السائر ج (٢) ص(٢٠٤-٢٠٥)

٢- الكشاف ج ٢ ص ٧٠٧ جار الله الزمخشري دار الكتب العلمية بيروت.



وعضي ابن الأثير في توضيح كلام الزمخشري حيث قال : وهذا كما لو أتي الإنسان ما نهيته عنه فلمته وعنفته ، ثم أتي ذلك مرة ثانية ، أليس أنك تزيد في لومه وتعنيفه.

وكذلك فعل هاهنا ، فإنه قيل في الملامة أولا : (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ) ثم قيل ثانية :( أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ) وهذا موضع يدق عن العثور عليه بادرة النظر ، ما لم يعط التأمل فيه حقه." (١)

وجاء في فتح القدير : زاد هنا لفظ لك لأن سبب العتاب أكثر وموجبه أقوي ، وقيل زاد لفظ لك لقصد التأكيد ، كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعني. (٢)

وقال البيضاوي : زاد فيه لك مكافحة بالعتاب على رفض الوصية ووسما بقلة الثبات والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة. (٣)

---

٢- المثل السائر ج (٢)ص (٢٠٤-٢٠٥)

٣- فتح القدير ج: ٣ ص:٣٠٣

٤- تفسير البيضاوي ج:٣ص ٥١٣-٥١٤

## توكيد الغائب المتصل
## بالغائب المنفصل

وكذلك الانتقال من الضمير المتصل الغائب إلى الضمير المنفصل الغائب مثل إنه هو فقد أو جوت القول فيه نظرا لسهولة معرفة الغرض من تكرار الضمير

وهذا قد كثر في كتاب الله تعالى والغرض منه توكيد إثبات الصفات أو الإسناد له تعالى ، فنبي الله موسى عليه السلام يؤكد لبني إسرائيل أن الله تعالى قد من عليهم بالتوبة والمغفرة ولا يعامل عباده بسوء الخاتمة

{وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم} (٥٤) سورة البقرة

تعليل لقوله تعالى فتوبوا فإن التوبة بالقتل لما كانت شاقة على النفس عرفها سبحانه بأنه هو الذي يوفق إليها ويسهلها ويبالغ في الإنعام على من أتى بها أو تعليل لقوله تعالى فتاب عليكم والضمير التوبة منه تعالى حينئذ بالقبول لتوبة المذنبين والتأكيد لسبق الملوح أو للاعتناء بمضمون الجملة [1]

والله سبحانه وتعالى العليم الخالق يوسف عليه السلام والسامع لتضرعه ودعائه قد من عليه بصرف كيد النساء عنه وعصمه من المعصية النسوة والفعل القبيح

---

١- روح المعاني ج ١ ص ٢٩٢



{فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم} (٣٤) سورة يوسف (إنه هو السميع العليم) تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه ، أي (إنه هو السميع) لدعوات الداعين له (العليم) بأحوال الملتجئين إليه [1]

بأتي توكيد إثبات السمع والبصر له تعالى فيما حكاه القرآن الكريم من رحلة الكريم والشريف لصاحب الرسالة – صلى الله عليه وسلم – أي إن هذه الرحلة كانت تحت سمع الله وبصره ، وهو وحده القادر على فعل مثل هذه الخوارق

{سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير} (١) سورة الإسراء

لقد أثبت الآية التسبيح والتنزيه لله وحده ، ثم بينت الغرض والهدف من هذه الرحلة ، ثم بينت ثبوت السمع والبصر لله سبحانه فجمعت الآية بدقة مناسبة بين الإخبار والتقرير والإثبات ، والغرض من تأكيد الضميرين في الآية هو بيان دقة ولطف ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في رحلته المباركة

(إنه هو السميع) لأقواله عليه السلام بلا أذن (البصير) بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك ، وفيه إيماء إلى أن الإسراء المذكور ليس إلا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته ، وإلا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب ، والالتفات إلى العبدية لتربية المهابة [2]

---

١- فتح القدير ج ٣ ص ٢٣

٢- تفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٥٥

وأهل الشر والباطل وأهل الجدال في آيات الله بقصد التضليل والمعاندة وإلباس الحق بالباطل واستقطاب أهل الإيمان إلي مستنقع الرزائل والقبائح ، والعصمة والوقاية من شرورهم وضررهم لا تكون إلا بالاستعانة والاستعاذة بمن يسمع سرهم ونجواهم ويري سوء نواياهم مهما حاولوا إخفاءها واجتهدوا في طمس معالمها ، وجاء التوكيد في الآية لتثبيت أهل الإيمان ووقوفهم علي معية الله التي تصحبهم وعنايته التي لا يخفي عليها شيء وفي فضح لأهل الجدال بيان فعاهم المشينة.

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (٥٦) سورة غافر

ومثله في الاستعاذة بالله من الشيطان {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (٣٦) سورة فصلت

نبي الله يعقوب عليه السلام يعلم أن كل ما حدث ليوسف من إخوته إنما هو بعلم الله وحكمة بديعة يعلمها هو تعالي وهذا يدل علي غاية التسليم والانقياد لإرادة تعالي . كيف لا وهو نبي من أنبياء الله – تعالي – جنابه أن يكون منه اعتراض علي فضاله تعالي.

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (٨٣) سورة يوسف .



ولما كان ما قدم عليه إخوة يوسف من التآمر علي الخلاص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم طلبوا من أبيهم الاستغفار أي أطهروا الدم وطلبوا الصفح والسماح {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} (٩٧) سورة يوسف ، ورغم ما قدموا عليه رق قلب أبيهم لهذا المطلب ، بل أراد أن يقتلع جذور الشك من نفوسهم فأكد لهم ثبوت المغفرة والرحمة له تعالي أي أن ما فعلتموه بجانب عفو الله ورحمته لا يساوي شيئا .

{قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (٩٨) سورة يوسف

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) أي المبالغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم.[1]

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (١٠٠) سورة يوسف .

هنا في ختام السورة قال (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (يوسف: ١٠٠) وفي بدايتها بعد ما قص يوسف الرؤيا علي أبيه {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (٦) سورة يوسف . وذلك حتى تتفق الخاتمة مع البداية.

---

١- تفسير أبي السعود ج ٧ ص ٢

ومن ذلك قوله تعالي {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (١٦) سورة القصص .

الذي يسرف علي نفسه في اقتراف المعاصي والذنوب ربما يتوهم أن المعاصي مع كثرتها وتكرارها تكون حائلا بينه وبين مغفرة الله وهذه الحالة إذا عاشت مع هذا المذنب ربما تلج به إلي باب القنوط من رحمة الله ، فأراد سبحانه – وتعالي – أن يقتلع كل هذه الهواجس والأوهام : لأنه تعالي يعلم وساوس الشيطان ويعلم ما حول العباد من إغراءات ومرغبات ومشهيات ، والدنيا وزينتها وبهجتها ، وشياطين الإنس وما يوحون به من المعاصي ، من أجل كل ذلك أقبل الله علي عباده بهذا النداء المحبب إلي نفوسهم والمزيل لأسباب الوحشة والبعد والذي يفتح أبواب الأمل والرجاء علي مصاريعها ، لذلك احتاج العصاة المذنبون إلي كل هذه التأكيدات التي ذخرت بها الآية الكريمة.

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (٥٣) سورة الزمر

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) علي المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة والمغفرة ، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في (عِبَادِيَ) من الدلالة علي الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم ، وتخصيص ضرر الاسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن مغفرة واطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعا ، ووضع اسم



موضع الضمير لدلالته علي أنه المستغني والمنعم علي الإطلاق والتأكيد بالجميع.[1]

ومن أمثلة ذلك هذه الآيات :

{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

(٢٦) سورة العنكبوت .

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (٢٢٠) سورة الشعراء .

{رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (٦) سورة الدخان .

{إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (٤٢) سورة الدخان .

{قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} (٣٠) سورة الذاريات .

{إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} (٢٨) سورة الطور .

{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} (١٣) سورة البروج .

---

١- تفسير البيضاوي ج:٥ ص:٧٢

## توكيد المنفصل بالمنفصل

مثل (أنا أنا) و(نحن نحن) و (أنت أنت) و(هو هو) و (هم هم) وهذا اللون لم يستعمله القرآن الكريم فلم أعثر له حتى على مثال واحد . أما السنة النبوية المطهرة فقط ذخرت بهذا اللون لكنها ليست من مجال البحث وسأكتفي بذكر مثالين .

عن جرير عن رجل من بني أسد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال لولا أن فيك التيه كنت أنت أنت قال أن واحدة لكفي قال تسل إزارك وتوفر شعرك قال لا جرم والله لا أفعل. (١)

وعن أبي موسي رضي الله عنه عن النبي صلي الله علية وسلم قال إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول من أخذل اليوم مسلما ليسه التاج ، قال فيجيء هذا فيقول لم أزل به حتى طلق امرأته فيقول يوشك أن يتزوج ويجيء هذا فيقول لم أزل به حتى عق والديه فيقول يوشك أن يبرهما ويجيء هذا فيقول لم أزل به حتى أشرك فيقول أنت أنت ويجيء فيقول لم أزل به حتى قتل فيقول أنت أنت وبلبسه التاج رواه ابن حبان في صحيحه. (٢)

وقال ابن حجر أنت أنت أي الصديق الخالص وقولهم هم هم أي الذين لا يغدر قدرهم وقول الشاعر أنا أبو النجم وشعري شعري. (٣)

---

١- الفتح ج ١٠ ص ٨٣ ، نضر بن راشد الأزدي ١٥١هـ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣ فتح الباري على صحيح الإمام البخاري للشيخ بكتاب المصنف للصنعاني ج ١٠

٢- فتح الباري ج ١٠ ص ١٦ ابن حجر العسقلاني دار المعرفة بيروت ت. الخطيب التبريزي ج٣ ص٢٠٣ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد ٦٥٦هـ بيروت ١٤١٧هـ طبعة أولى . تحقيق إبراهيم شمس الدين



أما الشعر والنثر فقد كثر فيهما هذا اللون وسأكتفي بذكر بعض النماذج مما ذكره ابن الأثير وتعليقه عليهما ومن ذلك ما أورده من قول أبي تمام :

لا أنت أنت ولا الديار ديار  خف الهوى وتولت الأوطار

فقوله لا أنت أنت ولا الديار ديار من الملح النادر في هذا الموضوع لأنه هو هو والديار الديار وإنما البواعث التي كانت تبعث علي قضاء الأوطار زالت فبقي ذلك الرجل وليس هو هو علي الحقيقة ولا الديار في عينية من الحسن تلك الديار. (٣)

وعلي هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي:

قبيل أنت وأنت منهم  وجدك بشر الملك الهمام

فقوله أنت أنت من توكيد الضميرين المشار إليهما وفائدته المبالغة في مدحه ولو مدحه بما شاء الله سد مسد قوله أنت أنت ، أي إنك المشار إليه بالفضل دون غيرك وأما قوله وأنت منهم فخارج عن هذا الباب وهو كلام مستأنف لا يتعلق بتوكيد الضميرين كأنه قال أنت الموصف بكذا وكذا وأنت من هذا القبيل يريد مدح قبيله به وهذا البيت لم أمثل به اختياراً له واستجادة وإنما مثلت به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل وإلا فالبيت ليس من المرضي لأن سبكه سبك عار من الحسن وفيه تقديم وتأخير. (٤)

---

١- المثل السائر ج٢ ص ٢٠

٢- المثل السائر ج٢ ص ٢٠

وقرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج أن عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة يا خير الفتيان اردد علي ما أخذته من إبلي فردهما عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل إلى الإبل فصرعه عمرو فقال له زياد لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم أنتم فقال عمرو له لقد أعطيت قليلا وقد وسمت جليلا وجررت علي نفسك ويلا طويلا ، فقوله لكنتم أنتم أنتم ، أي : أنتم الأشداء أو الشجعان أو ذوو النجدة واليأس أو ما جري هذا المجري ، إلا أن في أنتم الثانية تخصيصا لهم بهذه الصفة دون غيرهم ، كأنه قال لكنتم أنتم الشجعان دون غيركم ، ولو مدحهم بأي شيء مدحهم به من وصف البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الكلمة ، أعني أنتم الثانية ، وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه.[1]

١ – المثل السائر ج٢ ص:٢٠٩

## خاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام علي من ختم الله به الرسالات،

### وبعد

فهذه رحلة عشتها مع كتاب الله الكريم أتأمل ما فيه من الضمائر التي يقال إنها مكررة وما هي بمكررة ، لأن هذه التسمية توحي بجواز الاستغناء ،وما دام المكرر قد أفاد معني وأضاف جديدا فقد بريء من هذه التسمية.

وعلمت بهذا صدق ما ذهب إليه ابن الأثير من أهمية هذا الموضوع وأن المقام إذا تطلبه يكون في الدرجة العليا من البلاغة ، والقرآن الكريم استعمل هذا اللون في بعض المقامات وتركه في بعضها الآخر.

ووجدت تأكيد المنفصل بالمنفصل قد خلا القرآن الكريم منه تماما ، ولكن السنة النبوية قد كثر فيها التأكيد بهذه الطريقة ، وكذلك الشعر العربي والنثر كل منهما قد اشتمل علي العديد من مثل هذه الألوان.

ولا ريب أنني لم أتناول هذا الموضوع بشيء من الإحاطة والشمولية ، فقد أوليت اهتماما بما جاء منه في القرآن الكريم أما ما ورد منه في السنة المطهرة والشعر والنثر فلأن ذلك يحتاج إلي دراسات تتبعه في شعر كل شاعر مع المقارنات الدقيقة بين شاعر وشاعر أو المقارنات بين ما يأتي به الشاعر في موضوع وما يأتي به في موضع آخر.

ولله الفضل والمنة ، وهو المستعان وعليه التكلان.

## المصـــادر والمـــراجـــع


١- تفسير أبي السعود ، إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم :
محمـــد بـــن محمـــد العمـــادي أبـــو الســـعود:٩٥١ :
دار إحياء التراث العربي:بيروت.

٢- تفسير البيضاوي :٧٩١:دار الفكر::١٤١٦-١٩٩٦ المحقق :
عبد القادر عرفات العشا.

٣- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد بـــن أبي
بكر بن فرح القرطبي أبو عبـــد الله :٦٧١دار النشـــر دار
الشعب : القاهرة :١٣٧٢ الطبعة الثانية المحقق : أحمد عبـــد
العليم البردوني.

٤- تفسير الرازي فخر الدين الرازي ، دار الغد العربي مصر القاهرة

٥- التحرير والتنوير.الشيخ محمـــد الطـــاهر بـــن عاشـــور ،
دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

٦- الترغيب والترهيب عبد العظيم بن عبد القوي المنزري أبو محمد ،
٦٥٦ هـــ. بـــيروت ١٤١٧هـــ طبعـــة أولى ،
المحقق إبراهيم شمس الدين.

٧- الجامع ، معمر بن راشد الأزدي ١٥١هـ المكتب الإســـلامي
بيروت ١٤٠٣ طبعة ثانية المحقق حبيب الله الأعظمي كملحق
بكتاب المصنف للصنعاني ج ١٠.

٨- دلائل الإعجاز طبعة المنار





٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الآلوسي
أبو الفضل : ١٢٧٠ دار إحياء التراث العربي :بيروت

١٠- صفوة التفاسير دار التراث العربي القاهرة محمد علي الصابوني

١١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :
محمد بن علي بن محمد الشوكاني : ١٢٥٠: دار الفكر : بيروت

١٢ - فتح الباري لابن حجر العسقلاني : تحقيـــق / محـــي الـــدين
الخطيب ، دار المعرفة بيروت .

١٣- الكشاف جار الله الزمخشري الناشر دار الفكر للطباعة والنشر ،
والكشاف ج٣ دار الكتب العلمية .

١٤- ملاك التأويل . المؤلف أحمد بن إبراهيم بن الـــزبير الثقفـــي
الغاصمي الغرناطي ت/ تحقيق ســـعيد الفـــلاح / الناشـــر /
دار الغرب الإسلامي بيروت

١٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر المؤلف ضياء الدين بن
الأثير : تحقيق د/ أحمد الحوفي ، ود/بدوي طبانة دار الرفاعي
بالرياض طبعة ثانية .